

معركة إفراغة في الأندلس – صفحة رائعة من تاريخ المرابطين في الأندلس 1134هـ/528م

The Battle of Ifraqa in Andalusia - a wonderful page from the history of
the Almoravids in Andalusia 28AH/1134 AD

خالد حموم

جامعة محمد الأمين دباغين بسطيف 2 (الجزائر)

khaled_dz2011@yahoo.fr / k.hammoum@univ-setif2.dz

تاريخ النشر: 2025-06-03

تاريخ القبول: 12-04-2025

تاريخ الاستلام: 21-05-2024

ملخص:

حقّق المرابطون في الأندلس انتصارات عديدة على الممالك النصرانية، تمكنوا من خلالها من دحر تقدمها وإيقاف زحفها الجارف على بلاد المسلمين، ومن بين أهم انتصاراتهم ذلك النصر الباهر في معركة إفراغة سنة 528هـ/1134م الذي تحقّق في زمن الأمير علي بن يوسف.

يهدف هذا البحث إلى الحديث عن ظروف، أسباب، وقائع ونتائج هذه المعركة على المسلمين والنصارى على حد سواء، واستعنت بمجموعة من المناهج لدراسة هذا الموضوع، أهمها المنهج السردى، كما استخدمت المنهج التحليلي والنقدي لإظهار ما أمكن إظهاره من الحقائق والجوانب الخفية. وتوصلت في نهاية البحث للعديد من النتائج أهمها على الإطلاق هو نجاح المرابطين في دحر هزيمة القوى الصليبية بقيادة ألفونسو المحارب الذي مات أثناء المعركة أو بعد ذلك بقليل.

كلمات مفتاحية: إفراغة؛ الأندلس؛ حروب الاسترداد؛ المرابطون؛ الممالك النصرانية.

Abstract :

The Almoravids in Andalusia achieved many victories over the Christian kingdoms, through which they were able to defeat their advance and stop their sweeping advance on Muslim countries , Among their most important victories was the brilliant victory in the Battle of Ifraqa in the year 528 AH/1134 AD, which was achieved during the time of Prince Ali bin Yusuf.

This research aims to talk about the circumstances, causes, facts and results of this battle on Muslims and Christians alike, I used a group of methods to study this topic, the most important of which was the narrative method , i also used the analytical and critical method to reveal whatever hidden facts and aspects that could be revealed. At the end of the research, I reached many results, the most important of which is the success of the Almoravids in defeating the Crusader forces led by Alfonso the warrior, who died during the battle or shortly afterward.

Keywords: Ifraqa; Andalus; wars of reconquest; Almoravids; Christian kingdoms.

مقدمة:

عان المسلمون في الأندلس كثيرًا من ويلات حروب الاسترداد النصرانية، لكنهم لم يقفوا موقف المتفرج، فقد تصدى أمراءها لهذه الحروب، من بينهم الأمير المرابطي علي بن يوسف الذي أحرز نصرًا مدويًا على الممالك النصرانية بقيادة ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) في معركة إفراغة يوم 23 رمضان 528هـ/17 جويلية 1134م.

ومن هذا المنطلق أطرح الإشكالية التالية: ما هي انعكاسات نصر إفراغة على المسلمين في الأندلس وعلى الممالك النصرانية ؟

تنطلق فرضية الدراسة من التأكيد على ذلك الارتباط القائم بين العُدوتين المغربية والأندلسية، هاتين العُدوتين التي يفصلهما البحر الأبيض المتوسط (البحر الرومي) والذي كان محل اهتمام كبير من قبل أمراء الدولة المرابطية لغرض الجواز للأندلس برسم الجهاد في سبيل الله ومحاربة الممالك النصرانية.

أروم من خلال هذا البحث إلى الحديث عن ظروف، أسباب وقائع معركة إفراغة والنتائج القريبة والبعيدة المدى التي تمخضت عنها. واستخدمت المنهج السردى، التحليلي والتّقدي لإظهار ما أمكن إظهاره من الحقائق والجوانب الخفية.

1..ظروف وأسباب المعركة:

لما انتهت الحرب بين ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior)⁽¹⁾ ملك أراغون (Aragon)، وألفونسو ريمونديز (Alfonso Raymondez)⁽²⁾ ملك قشتالة (Castile) والتي استمرت ثلاثة أعوام سجالًا في معارك محلية بين الفريقين، بتدخل الأخبار الذين بذلوا جهود كبيرة للصلح بينهما، فعقدت الهدنة في آخر المطاف بين الطرفين سنة 524هـ/1130م، وتخلّى كل طرف على بعض الامتيازات التي كان يملكها، وتفرغوا جميعًا لحرب المسلمين، على وجه الخصوص ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) الذي حوّل شهوة الحرب وبشكل مباشر لمحاربة المسلمين في الأندلس ودولة المرابطين بالتحديد (أشباح، 1996، ص.168 وما بعدها).

وكان أهم ما يشغله هو الاستيلاء على ما بقي من قواعد الثغر الأعلى، وإجلاء المسلمين عنها، وكانت هذه القواعد تنحصر بالخصوص في إفراغة⁽³⁾، لاردة، مكناسة وطُروطوشة، واستيلاءه على هذه الأخيرة يضمن له سلامة الملاحة في نهر إيبرو (Ebro)، ويصل ما بين مملكته وبين البحر، بيد أنه كان يتعين عليه قبل البدء بمحاصرة طُروطوشة الاستيلاء على عدّة مدن مرابطية تقع في الداخل (أشباخ، 1996، ص.172).

وبدأ ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) بالزحف على مدينة مكناسة في أواخر سنة 527هـ/جويلية 1133م واستولى عليها عنوةً (أشباخ، 1996، ص.172)، حيث هجم عليها النصارى بشدة واضطرت إلى التسليم بعد مقاومة عنيفة ولم يكن الدفاع عنها ميسورًا لوقوعها في السهل المكشوف عند ملتقى نهرى سجرو (سجري) وإيبرو (Ebro) (عنان، 1990، ص.121).

ولقد سارع المرابطون إلى محاولة تدارك الموقف، وصدّ تحركات ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) الذي يرمي إلى الاستيلاء على جميع مدن الثغر الأعلى، وقاموا بتكثيف الجهود وتسخير كل الطاقات لمنع من تحقيق هدفه المنشود.

ولكي يتفرغوا لحرب ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior)، وحتى يؤمّنوا من عدوان كونت برشلونة (Barcelona) رامون برنجير الرابع (Ramon Berenguer IV)⁽⁴⁾ ولكي لا يضطروا للقتال في أكثر من جهة، عقد أمير المسلمين علي بن يوسف مع هذا الكونت معاهدة صلح من أهم بنودها، أن يدفع المرابطون ضريبة سنوية مقدارها اثنا عشر ألف دينار. ولمّا علم ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) بأخبار هذه المعاهدة غضب غضبًا شديدًا، وأقسم بأيّمان مغلفة أنه سوف ينتقم من كونت برشلونة (Barcelona) ويستولي على بلاده حيث قال "لأنزلن على تلك البلاد التي يؤدون عليها الإتاوة، فأصيرها في ملكي، وأقطع منفعتها عن كونت برشلونة (Barcelona)، حتى يعلم أهل الأرض أنني قهرتهم في كل وجه"، كما هدّد المسلمين أيضًا وقال "هؤلاء العمال الصناع (يقصد المسلمين) يؤدون الإتاوة للصانع الفاعل (يقصد كونت برشلونة) ولو أعطوني درهمًا واحدًا لأخذته، ويعلم أنني قهرتهم وغلبتهم. (ابن القطان، 1990، ص.ص.244-245).

2.. وقائع المعركة:

بادر ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) بالزحف على مدينتي إفراغة ولاردة، وبدأ الزحف على إفراغة التي تقع في الضفة اليمنى لنهر سِنكا (أو أنجا) وتقع أيضاً على ربوة عالية منيعة جداً (أشباح، 1996، ص.173)، في نهاية منحدر وعرضيق، تصعب مهاجمته ويسهل الدفاع عنه (عنان، 1990، ص.121)، وبها حصن منيع لا يُرام (الحميري، 1975، ص.48)، وأهلها أُسَد ذلك الصقع (ابن القطان، 1990، ص.245).

وعندما وصل ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) إلى إفراغة بجيشه الضخم الذي بلغ اثنا عشر ألف فارس (ابن الأثير، 1966، ص.287) ضرب عليها الحصار، وأقسم على نفسه ألا يبرح إفراغة حتى يأخذها عنوةً (ابن القطان، 1990، ص.245)، وكان بها وقتذاك القائد سعد بن مردنيش (Mardonius)⁽⁵⁾ الذي استغاث بالمسلمين، لأنَّ المدينة أشرفت على السقوط، وعلى هلاك أهلها (ابن الخطيب، 1964، ص.254)، ولم يتمكن من القضاء على جيش ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) رغم مقاومته الشديدة له وإرغامه على رفع الحصار غير مرة (عنان، 1990، ص.122).

واستغاث أهل إفراغة أيضاً لما طال بهم الحصار، وضاحت بهم السبل بأمير بلنسية ومرسيّة يحي بن غانية⁽⁶⁾، وبعثوا له كتاباً يطلبون منه إرسال الأقوات لهم، وإلا يخضعون لألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) ويسلمون له المدينة، وعندما قرأ يحي بن غانية كتابهم جهز لهم الأقوات والمؤن وقدم العطايا لأهل عسكره، وأعتق بعض إماءه وعبيده، وكتب وصيته، وتجهز لحرب عدوّه، فقال له بعض خاصته تغزو بهذا العسكر وليست للمسلمين عسكر بالأندلس سواء؟ فكيف تلقى علي بن يوسف بعد اليوم وقد انهزمت؟ قال فليصنع بي ما شاء (ابن القطان، 1990، ص.246).

وقد لبى النداء الزبير بن عمرو اللّمتوني (ابن الأثير، 1966، ص.287)، قائد قرطبة ومعه ألف فارس، ويحي بن غانية أمير بلنسية ومرسيّة في خمسمائة فارس، وكذلك أمير لاردة عبد الله بن عياض في مائتي فارس، وقد حملوا معهم مؤن وأقوات وفيرة (ابن الأثير، 1966، ص.287)، من جملتها ألف بغل تحمل الدقيق وغير ذلك من المرافق وعُدُّ القتال وأدوات الحرب (ابن الخطيب، 1964، ص.254-255)، وعسكروا بالقرب من إفراغة مقابل الجيوش الأراغونية المحاصرة لها (ابن الأثير، 1966، ص.287).

ويبدو أنَّ المرباطين عملوا على استدراج قوَّات ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) للاشتباك معه في معركة محدودة حتَّى يتمكنوا من إيصال المؤن للمدينة المحاصرة (الهرفي، 1985، ص.238)، وقد تقدم القائد عبد الله بن عياض صاحب لاردة صفوف الجيش المرباطي، وخلفه يحي بن غانية والوزير بن عمرو اللَّمتوني وأمامه الميرة (المؤن) وقد ظهرت هذه الميرة لألفونسو المحارب (Alfonso the warrior)، فقال لأصحابه اخرجوا واستولوا على هذه الهدية يقصد المؤن مستخفًا بقوات المسلمين (ابن الأثير، 1966، ص.287)، التي تقدر مجموعها بحوالي ثلاثة آلاف فارس حسب بعض الروايات الإسلاميَّة، بينما يرى عنان أنَّ هذا العدد لا يتفق حسب تقديره مع ضخامة المعركة ونتائجها. (عنان، 1990، ص.123).

وتبالغ الرواية النَّصرانيَّة في تقدير عدد جيش المسلمين، حيث يرى أشباخ (Aschbach) أنَّه يتألَّف من جيش ضخَم من أهل بلنسيَّة ومرسيَّة وعشرة آلاف مقاتل انضموا إلى تعداد الجيش المرباطي قادمين من جنوب الأندلس (أشباخ، 1996، ص.ص.172-173). وأعتقد أنَّ أشباخ بالغ في تقدير عدد الجيش المرباطي، وهذه عادة المستشرقين حيث يقومون بتضخيم أعداد الجيش الإسلامي والسكوت أو التقليل من أعداد الجيش النَّصراني.

وقبل بداية المعركة حدثت قصة طريفة لراهب كان في جيش ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior)، جاء إليه وقال له "أنا أدعوا على المسلمين، فينهدم حصنهم وتدخل عليهم عنوةً، فوافقه ألفونسو (Alfonso) في ذلك، فصعد الراهب ربوة قريبة من سور إفراغة، وأخذ يدعوا على المسلمين فلما رآه المسلمون المحصورين داخل المدينة، أعدوا منجنيقًا وضربوه به، فأصابه حجر المنجنيق فشطره إلى نصفين، وعندما رأى ألفونسو (Alfonso) جثته وكان يتهيأ للهجوم على إفراغة أصابه خوفًا شديدًا، وانصرف إلى محلته مهين النَّفس خائب الأمل. (ابن القطان، 1990، ص.247).

وبالعودة إلى وقائع المعركة، التي بدأت بإعطاء ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) الأمر لفرقة كبيرة من جيشه بالتَّقدم نحو الجيش المرباطي للانقضاض عليه (ابن الأثير، 1966، ص.287)، فبادر ابن عياض بقوَّاته للهجوم عليها، فتمكن من هزيمتها، ولمَّا رأى ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) هزيمة رجاله اندفع بقواته الرئيسيَّة التي اغترت بكثرتها وشجاعتها نحو فرقة ابن عياض، والتي انضمت إليه فرقة ابن غانية، فالتحم الفريقان في معركة حامية الوطيس عظم فيها القتل، حيث قتل خلقٌ كثير من النَّصارى (ابن الأثير، 1966، ص.287).

وأثناء المعركة وصلت قافلة الميرة إلى مدينة إفراغة، فارتفعت معنويات أهلها (ابن الخطيب، 1964، ص.255)، وخرجوا جميعاً ذكرهم وأنثاهم، صغيبرهم وكبيرهم إلى خيام العدو (ابن الأثير، 1966، ص.287)، وصمموا على قتالهم، قتال الموت (ابن الخطيب، 1964، ص.255) فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا من جند النصارى، واشتغلت النساء بأخذ جميع ما وجوده في خيامهم إلى المدينة من قوت وآلات وسلاح وغير ذلك (ابن القطان، 1990، ص.247).

وانضمت إلى المعركة أيضاً قوات قرطبة بقيادة الزبير بن عمرو اللمتوني، فأثخنت في العدو الذي تشتت جمعه، وقُتل منه خلق كثير، ولم يسلم منهم إلا القليل، وقد فرّوا مع ألفونسو المحارب إلى سرقسطة (ابن الأثير، 1966، ص.287)، وخلال فراره هذا كانت جيوش المرابطين تتبعه بعزم وتنقض على جنده وقد أوى إل حصن خرب على رأس جبل شاهق مع بعض الناجين من جنده، وبات المسلمون تلك الليلة يراقبون ذلك الحصن ولما أيقن ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) أنه محاصر قرر الهرب في ظلمة الليل من ذلك الحصن ونجح في ذلك، فانصرف المسلمون أيضاً من الحصن مغتبطين بانتصارهم على العدو (الحميري، 1975، ص.49). ومن لطائف الله سبحانه وتعالى وآياته أنه فرت طائفة من هؤلاء المهزمين في المعركة إلى كهف ظنوا أنه ينجدهم، فسقط عليهم، فلم ينجو منهم أحد (ابن القطان، 1990، ص.247).

وقد أبلى جميع القادة المشاركين في الموقعة التي حدثت في 23 رمضان 528هـ/17 جويلية 1134م⁽⁷⁾ البلاء الحسن خاصة أمير بلنسية ومرسية يحيى بن غانية، الذي أثنت عليه المصادر التاريخية، ونسبت له الفضل في تحقيق هذا النصر، لكونه لبى نداء الجهاد في سبيل الله من أجل إنقاذ إخوانه في إفراغة (ابن الخطيب، 1975، ص.121)، وقد أثنى عليه شاعر الشرق أبو جعفر بن وضاح المرسي في قصيدة يمدحه بها (الحميري، 1975، ص.49).

ونشير إلى أن الرواية النصرانية تختلف قليلاً عن الرواية الإسلامية في سرد وقائع المعركة حيث يذكر أشباخ أن ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) عندما حاصر إفراغة أقسم علناً أن يستولي عليها أو يموت دونها، كما أقسم أبوه سانشو راميرز (Sancho Ramirez) أمام مدينة وشقة قبل ذلك بأربعين عاماً، وأقسم مع ألفونسو (Alfonso) عشرون من أتباعه، ثم أمر لكي يُذكي حماس الجيش الأراغوني أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقوامس (أشباخ، 1996، ص.173).

وعلى إثر ذلك اشتبك النصارى مع المسلمين القادمين لنجدة المدينة في معركتين وهُزم المسلمون ولجئوا إلى الفرار، فأراد أهل إفراغة تسليم المدينة لألفونسو (Alfonso) بشروط يسيرة، ولكنه رفض واعتزم الاستيلاء على المدينة عنوةً (أشباخ، 1996، ص173).

ويذكر أشباخ (Aschbach) أنَّ ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) لم يُهزم إلا بعد لجوء الجيش المرابطي إلى الخديعة، حيث دبوا كمينًا جذبوا إليه الأراغونيين إلى قافلة المؤن والغنائم التي كانت عند المسلمين، وهناك انقضت عليهم نخبة من المجاهدين الشجعان وهزمهم شرَّ هزيمة، وقد هلك قسم كبير من الجيش الأراغوني، وجمهرة من الفرسان الفرنسيين والقوامس وأسقفا رُوضة ووشقة (أشباخ، 1996، ص173).

3.. نتائج المعركة:

كان لنصر المرابطين في إفراغة صدى عميق في سائر أرجاء الأندلس وفي البلاد النصرانية بنوع خاص، وعادت سمعة المرابطين العسكرية إلى سابق مكانتها في شبه الجزيرة (عنان، 1990، ص125)، حيث انقشع الخطر مدى حين عما بقي بأيدي المسلمين من أراضي الثغر الأعلى وعن شرق الأندلس (عنان، 1990، ص125).

وأعظم انجاز حققه المرابطون في هذه الموقعة، هو مقتل ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) أثناء المعركة أو بعد ذلك بقليل، وقد اختلفت الروايات التاريخية اختلافًا كبيرًا حول كيفية وفاته، فالروايات الإسلامية منها رواية ابن الأثير الذي قال أنَّه فرَّ إلى سرقسطة وقد مات بسبب مقتل معظم جيشه بعد عشرين يومًا من الهزيمة (ابن الأثير، 1966، ص287)، ورواية ابن عذارى الذي ذكر أنَّه بقي أيامًا بعد الهزيمة ومات من مرض أصابه سنة 528هـ/1134م (ابن عذارى، 1998، ص93-94)، ويقول ابن القطان أنَّه فرَّ إلى سرقسطة ثمَّ خرج إلى وشقة فأقام بها ومات بعد أشهر قليلة من سنة 529هـ/1135م (ابن القطان، 1990، صص.247-248). أمَّا الروايات النصرانية والتي نقل معظمها أشباخ تقول أنَّه سقط خلال الموقعة يوم 23 رمضان 528هـ/17 جويلية 1134م، ولكن جثته لم توجد بين الموتى بالرغم من الجهود التي بذلت للبحث عنها، وهناك رواية أخرى من مؤرخ قطلوني معاصر، يقول فيها أنه فرَّ مع فارسين ولجأ إلى دير القديس خوان دي لابنيا (Juan de Lapña) في سرقسطة، وهناك توفي غمًا بعد ثمانية أيام من

الموقعة، وهناك رواية أخرى تقول أنه توفي في معركة مع المسلمين يوم 14 شوال 528هـ/7 سبتمبر 1134م. (أشباح، 1996، ص.ص. 173-174). وحسب اعتقادي فمن الصعب تحديد تاريخ وكيفية وفاته بدقة متناهية، ولكن يمكننا التأكيد بأن معركة إفراغة كانت السبب الرئيسي في وفاته، ومن المحتمل جدًا أنه توفي بعد أيام قليلة بسبب إصابة بليغة ألمت به خلال المعركة، وأستبعد الرأي الذي يقال فيه أنه توفي غمًا وحزنًا بعد الهزيمة، فملك محارب وقوي مثله مستحيل أن يموت بهذه الطريقة، لأنه بالتأكيد يدرك تمام الإدراك أن الأيام دولًا بين الناس، يوم لك ويوم عليك، وقد عاش هذا الوضع وحدث له ذلك مرارًا وتكرارًا، حيث أنه انتصر في معارك ضد المسلمين وانهزم في معارك أخرى ضدهم أيضًا. والمهم في الأمر أن المسلمين بوفاته تخلصوا من غزواته المدمرة على سائر بلاد الأندلس، فقد كان أشد ملوك النصارى بأسًا، وأعظمهم صبرًا، وأكثرهم تجردًا لحرب المسلمين (السامرائي، 1975، ص.265).

كما ساهم هذا النصر في رفع معنويات الجيش المرابطي الذي أخذ ينتهز الفرص للانقضاض على معاقل النصارى، وقد تجلّى ذلك في سلسلة الغزوات التي شنها هذا الجيش في سائر بلاد الأندلس، ومنها بالخصوص تلك التي حدثت عام 530هـ/1136م حيث خرج ابن مردنيش صاحب إفراغة وابن غانية صاحب بلنسية واستنفروا قوات الثغرا الأعلى، لمداهمة مكناسة التي كانت تعاني من نقص المؤن، وقد تمكن المرابطون من الاستيلاء عليها بعدما تخاذل الجيش الأراغوني وفراره من جيش المسلمين (ابن عذاري، 1998، ص.ص. 95-96).

يرى المؤرخ عنان أن المرابطين ارتكبوا خطأ عسكريًا خطيرًا، يتمثل في عدم الاستفادة من نصرهم في هذه المعركة بالزحف على مدينة سرقسطة ومحاولة استردادها، وقد كانت على مرمى حجر وعلى مقربة من ساحة نصرهم، كما أن الجيش الأراغوني سُحق في هذه المعركة وبشكل كبير جدًا، وهلك ملكهم القوي ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) مما يُشجع على الاضطلاع بمثل هذه المحاولة، ولكن المرابطين قنعوا في ذلك الموطن بالنصر، وانصرفوا إلى قواعدهم على غرار ما حدث عقب الانتصار في معركة الزلاقة، حيث أحجم الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين عن انتهاز فرصة انهيار ألفونسو السادس (Alfonso VI) وجيشه القشتالي لمحاولة استرداد طليطلة سنة 479هـ/1086م (عنان، 1990، ص.126).

ولا أوافق في هذا المقام رأي المؤرخ عنان وأعتقد بأنّ خوض معركة كبيرة بحجم معركة إفراغة يحتاج إلى فترة زمنية معينة لإعادة ترتيب صفوف الجيش، وتجهيزه من جديد كما أنّ الهجوم على مدينة بحجم سرقسطة وهي عاصمة لمملكة أراغون (Aragon) يحتاج إلى عُدّة وعتاد كبيرين وإلى تخطيط مُسَبَّق ومُحكم.

خاتمة:

توصلت مع ختامي بحثي هذا إلى العديد من النتائج وهي:

- حروب الاسترداد في بلاد الأندلس كانت سجّالاً بين المسلمين والممالك النصرانية، خاصة زمن المرابطين الذين رفعوا لواء الجهاد في سبيل الله، وقاموا برد عدوان النّصارى والدفاع على أراضي المسلمين.
- تعاظم أمر حروب الاسترداد في بلاد الأندلس كثيراً في عهد ملك أراغون ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior)، ولحسن حظ المسلمين فقد كانت دولة المرابطين قوية جداً، فجندت جيوشها للتّصدي لهذه الحروب بكل عزيمة وقوة وحقّقت العديد من الانتصارات على الممالك النصرانية.
- أعاد انتصار إفراغة المجد للدولة المرابطية في الأندلس، بعد سلسلة من النكسات والهزائم المتوالية بسقوط سرقسطة سنة 512هـ/1118م، وهزيمة كتندة سنة 514هـ/1120م، وهزيمة القلعة سنة 523هـ/1129م.
- جسدت هذه المعركة روح التضامن بين أمراء المسلمين ورعيّتهم، فرأينا كيف أنجد أمير بلنسية ومرسيّة يحيى بن غانية وكذلك أميرى قرطبة ولاردة وغيرهم من أمراء الأندلس، أهل إفراغة المحاصرين وأنقذوهم من الموت المحتوم.
- خفت حروب الاسترداد قليلاً بعد هزيمة أخطر ملك للنّصارى آنذاك ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) ملك أراغون في معركة إفراغة، فقد انتكست عزائم النّصارى وضعفت همهم بالخصوص بعد وفاة ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) بعد أيام قليلة من نهاية المعركة.

- أدرك المرابطون بعد نهاية معركة إفراغة خطورة التهاون في التصدي للزحف الصليبي على مدن الثغر الأعلى، فسارعوا لتنظيم غزوات عديدة على الثغور مع الممالك النصرانية، تمكنت إحداها سنة 530هـ/1136م من الاستيلاء على مدينة مكناسة.

الهوامش:

(1) هو (Alfonso Sánchez) المعروف باسم ألفونسو الأول المحارب (Alfonso I the warrior) خلف أخاه بيدرو الأول (Pedro) أعلى عرش أراغون (Aragon) ونافارا (Navarra) في سنة 498هـ/1104م، واستمر في الحكم إلى غاية وفاته سنة 528هـ/1134م، تسميه المصادر الإسلامية ابن رذمير (Rodumir) وهو الصيغة الأقرب إلى الصحة على ابن ردمير (Rodumir) الذي ذكرته بعض المراجع الحديثة، وترجع التسمية إلى الصيغة الأصلية للاسم الجرمانى لوالده (Rodumir) وقد حرقه الإسبان إلى راميرو (Ramiro) أو راميرز (Ramirez)، ضمَّ عقب وفاة حميه ألفونسو السادس (Alfonso VI) إلى مملكته الأصلية أراغون (Aragon) ونافارا (Navarra) ميراث زوجته أوراكا (Urraca) المشتمل على ممالك ليون (Leon) وقشتالة (Castile) وأشتوريش (Ashturish)، وعلى إمارتين جديدتين تؤديان له الضريبة هما جليقية (Galicia) والبرتغال (Portugal)، ولو ضُمَّت إليه إمارة برشلونة (Barcelona) لشمَل حكمه جميع إسبانيا (Spain) النصرانية، كان له حماس ديني لا نظير له في محاربة المسلمين فترك لأجل ذلك حياة الترف والرخاء ليتفرغ لقتالهم. (انظر: ابن الكردبوس، 1971، ص.ص. 115-116، هامش 4؛ أشباح، 1996، ص. 145 وما بعدها؛ الهرفي، 1985، ص. 217 وما بعدها).

(2) هو ابن أوراكا (Urraca) بنت ألفونسو السادس (Alfonso VI) من زوجها الأول الكونت ريمونديز البرجوني (Raymondes of Bourgogne)، يُدعى أيضًا ألفونسو السابع (Alfonso VII)، ويلقب بالسليطين، تصغيرًا للقب السلطان، لأنَّه تولى الحكم منذ طفولته، وقضى طيلة حكمه التي امتدت من 520هـ/1126م إلى 552هـ/1157م في محاربة المسلمين وأبناء ملته دون انقطاع، يعرف في الرواية الإسلامية بألفنش بن رمند أي ألفونسو بن ريموند أو ريمونديز (Alfonso Ben Raymondez)، وهو اسم والده. (ابن عذاري، 1998، ص. 86؛ أشباح، 1996، ص. 168 وما بعدها؛ عنان، 1990، ص. 502 وما بعدها).

(3) إفراغة مدينة تقع أقصى شرق الأندلس، من أعمال لاردة وهي بالغرب منها، بينهما ثمانية عشر ميلًا، لها حصن منيع، وهي حسنة البناء وكثيرة الزيتون والبساتين التي لا نظير لها. (الإدريسي، 1983، ص. 261؛ الحموي، 1979، ص. 227؛ الحميري، 1975، ص.ص. 48-49).

(4) يُسميه ابن القطان، البرشلوني، وهذا اللقب أطلق على الكونت رامون برنجير الثالث (Ramon Berenguer III)، وتذكر المراجع الحديثة أنَّه هو الذي وقَّع مع المرابطين المعاهدة دون ذكر تاريخها، وقد ذكر ابن القطان هذه المعاهدة في معرض حديثه عن موقعه إفراغة التي حدثت سنة 528هـ/1134م، والمرجح أنَّ هذه المعاهدة وقَّعت قبل الموقعة بقليل، أي بعد استيلاء ألفونسو المحارب (Alfonso the warrior) على مكناسة أواخر عام 527هـ/جويلية 1133م، وكونت برشلونة (Barcelona) آنذاك هو رامون برنجير الرابع (Ramon Berenguer IV) وليس والده الكونت رامون برنجير الثالث (Ramon Berenguer III) الذي توفي سنة 525هـ/1131م. (ابن القطان، 1990، ص. 244؛ الهرفي، 1985، ص.ص. 236-237).

(5) هو أبو عبد الله محمَّد بن سعد الجُذامي بن مردنيش، أو مردنيش، وهو المشهور بابن مردنيش، تنسبه الروايات الإسلامية إلى قبيلة جُذام العربية، وتقول أنَّ والده سعد كان أميرًا على إفراغة في عهد المرابطين، أمَّا بعض الباحثين المحدثين فينسبونه إلى أصل رومي (بيزنطي) ويقولون أنَّ اسم جده مردنيش ليس اسمًا عربيًّا ممَّا ينفي نسبه إلى جُذام، وقد يكون مردنيش دخل في

ولاء بعض الجذاميين وانتسب إليهم، واقترحوا أن يكون أصل الاسم (Martinas) أو (Mardonius). وقد كان ابن مردنيش في هيئته ولباسه وسلاحه أقرب إلى النصراني، ثار بشرق الأندلس وامتلك عدة مدن به، ويعتبر من أخطر وأكبر الثائرين على الموحدين في الأندلس، قضوا عليه في العاشر رجب 567هـ/6 مارس 1172م وله ثمانية وأربعون عامًا. (ابن صاحب الصلاة، 1987، ص. 65 وما بعدها ؛ ابن الأثير، 1985، ص. 232-233، هامش 1 : المراكشي، 1998، ص. 146-147 ؛ الحايك، 1993، ص. 33 وما بعدها).

(6) هو أبو زكريا يحيى بن علي بن غانية المسوفي الصنهاجي، يُعرف هو وأخوة محمّد، بابني غانية وهي أمهما، وهو من القادة المشاهير للمرابطين ولاء علي بن يوسف بلنسيّة ومرسيّة وكذلك قرطبة، كان رجلًا صالحًا شديد الخوف لله عزّ وجل، مع علوّ قدم في الفقه واتساع رواية الحديث، كان له صولات وجولات في حرب النصراني بالأندلس، وفي إخماد ثورات أهل الأندلس والموحدين على المرابطين، يُرجّح أنّه توفي في 14 شعبان 543هـ/ديسمبر 1148م بغرناطة. (ابن القطان، 1990، ص. 245، هامش 1: المراكشي، 1998، ص. 189-190).

(7) اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ المعركة، حيث يذكر الجُميري أنّها حدثت في رمضان سنة 528هـ/جويلية 1134م وهو التاريخ الذي ذكره أشباخ (Aschbach) مع تحديد اليوم وهو الثالث والعشرون من رمضان 528هـ/17 جويلية 1134م وهو الأرجح حسب اعتقادي، في حين اكتفى ابن عذارى بذكر السنة وهي 528هـ/1134م دون ذكر اليوم والشهر، ويذكر ابن القطان تاريخين حيث قال في الأوّل أنّها حدثت سنة 528هـ/1134م، وفي الثّاني قال أنّها وقعت سنة 529هـ/1135م، ويقول ابن الأثير أنّها حدثت سنة 529هـ/1135م، ولم يحدّد ابن الخطيب التاريخ بدقة، حيث اكتفى بالقول أنّها وقعت زمن الأمير علي بن يوسف. (ابن الأثير، 1966، ص. 287 ؛ ابن القطان، 1990، ص. 235 وما بعدها ؛ ابن عذاري، 1998، ص. 93 ؛ ابن الخطيب، 1964، ص. 254-255 ؛ الحميري، 1975، ص. 48 ؛ أشباخ، 1996، ص. 173-174).

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1. ابن الأثير، محمّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاي، (1985)، الحُلّة السيّراء، حقّقه وعلّق حواشيه حسين مؤنس، ط2، ج2، دار المعارف، القاهرة.
2. ابن الأثير، عز الدّين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبد الكريم الشيباني، (1966)، الكامل في التّاريخ، مج9، دار صادر للطباعة والنّشر، بيروت.
3. الإدريسي، أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (1983): القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر.
4. الحموي، شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرّومي البغدادي، (1979)، مُعجم البلدان، دار صادر، بيروت.
5. الجُميري، أبو عبد الله محمّد بن عبد المنعم، (1975)، الرّوضُ المعطار في خبر الأقطار، حقّقه إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت.
6. ابن الخطيب، لسان الدّين أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن أحمد السليماني، (1964)، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبّادي ومحمّد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب.
7. ابن الخطيب، لسان الدّين أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن أحمد السليماني، (1975)، الإحاطة في أخبار غرناطة، حقّق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمّد عبد الله عنان، ط2، مج2، مكتبة الخانجي، القاهرة.

8. ابن صاحب الصلاة، أبو محمد عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي، (1987)، المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحّدين)، تحقيق عبد الهادي التازي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
9. ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، (1998)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، ط5، ج4، دار الثقافة، بيروت.
10. ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي المراكشي، (1990)، نُظُم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان، درسه وقَدّم له وحَقَّقَه محمود علي مكّي، ط1، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
11. ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أبي القاسم بن الكردبوس التوزري، (1971)، تاريخ الأندلس وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبّادي، مطبعة معهد البّراسات الإسلاميّة، مدريد.
12. المُرّاكشي، عبد الواحد بن علي، (1998)، المُعْجَب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت.

المراجع:

13. الحايك، سيمون، (1993)، ابن مردنيش أو المؤجّدون، الطبعة البوليسيّة، لبنان.
14. السامرائي، خليل إبراهيم، (1975)، علاقات المرابطين بالممالك الإسبانيّة بالأندلس وبالذّول الإسلاميّة، منشورات وزارة الثقافة الجمهوريّة العراقيّة، دار الحرية للطباعة، بغداد.
15. عنان، محمد عبد الله، (1990)، دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثّالث - عصر المرابطين والموحّدين في المغرب - القسم الأوّل عصر المرابطين وبداية الدّولة الموحّديّة، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة.
16. الهرفي، سلامة محمد سلمان، (1985)، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين - دراسة سياسية وحضارية، دار النّدوة الجديدة، بيروت.

المراجع المترجمة:

17. أشباح، يوسف، (1996)، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة.